الدين وأثره فى اصلاح المجتمع

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

تمهيد

١ ــ هل الانسان متدين بفطرته ؟

٢ ــ هل الشعوب التى لم يرسل الله اليها أنبياء فكرت من نفسها فى وجود الله ؟

٣ ــ لماذا لم يذر الله الناس على دياناتهم الوضعية التى ابتدعوها ؟

٤ ــ هل للدين أثر فى اسعاد الانسان وهنائه ؟

لنفرض أنفسنا فى قارة من القارات التى لم تسمع للدين بخبر ، ولم تقف له على أثر ، أو سمعت عنه فى زمن مضى ثم نسيته تماما كأوروبا أو كمصر قبل أن نزوح النبيين الجليلين : يوسف وموسى عليهما السلام الى أرضها ، ولنتحدث اليك عن هذا الصنف من البشر ، واليك البيان :

رأى الناس فى سذاجة وبساطة أن فريقا ممن حولهم يصح ، وآخر يمرض وثالثا يقوى ، ورابعا يضعف ، وخامسا يغتنى ، وسادسا يفتقر ، وسابعا يولد ، وثامنا يموت ، فحاولوا أن يعللوا هذه الظواهر المختلفة أو يردوها الى أسباب معقولة ، وعلل مقنعة ، ولكنهم وقفوا حائرين عاجزين عن تعليل أية ظاهرة من ظواهر هذا الكون الهائلة المرعبة . وسرعان ما اندفع الى قلوبهم الطاهرة ، ثم الى عقولهم الساذجة ايمان وثيق بأن هناك يدا خفية تحرك هذا الكون حسب مشيئتها ووفق ارادتها ، وأن صاحب هذه اليد لابد أن يكون مقيما فى هذه القبة الزرقاء عند بعض الشعوب ، والقاتمة أو الرمادية عند البعض الآخر ، والتى يبرز من أفقها كوكب الشمس المضىء حينا ، والقمر المنير والنجوم اللامعة حينا آخر ، والتى تغضب أو يغضب ساكنها قليلا فى مصر مثلا ، وكثيرا فى أوروبا ، فتبرق وترعد ، وتنذر وتتوعد ، وترسل من الصواعق نارا ، ومن وابل الجبل مدرارا . غير أنهم لأمر ما قد تصوروا أن هذا المحرك الاكبر لابد أن تكون له ممثلون على الارض ، وأنهم اذا أرادوا أن يجلبوا رضى هذا الاله أو يدفعوا سخطه ، فلابد لهم من أن يفتشوا عن هؤلاء الممثلين جهد طاقتهم حتى اذا عثروا عليهم ، قدموا لهم الضحايا والقرابين وقاموا بين أيديهم بقسط ممكن من الاحترام والاجلال ثم أخذ كل شعب يبحث عن هؤلاء الممثلين الذين يقربونه الى الله زلفى . ولكن هذا البحث لم يهد أصحابه الى نتيجة واحدة ، وهذا أمر طبيعى ما دام أن هؤلاء الشعوب يختلفون فى

طالعهم وأجوائهم ، ومواقع بلادهم الجغرافية التى لها على الثقافة والتفكير أثر عظيم فاقتنع المصريون مثلا بأن ممثل المحرك الاعظم لهذه الكائنات هو كوكب الشمس لما رأوه فيه من فائدة ونفع للانسان والحيوان والنبات ، وما تصوروه عليه من بطش بجيوش الظلام الشريرة السوداء التى لاتسيطر على العالم الا حين ينام هذا المحرك الجليل فاذا استيقظ من نومه وصرخ فيها صرخة مدوية ، تفرقت شذر مذر ، ومزقت كتائبها كل ممزق ، وفرت الى أعمق طبقات الجحيم حيث تقضى هناك طيلة النهار . أما هو ، فانه يختال فى السماء معجبا بذاته فى دل وتيه ، متباهيا بما سكبه على الكون من عناصر الحياة والضوء والانتعاش .

ولما كانت الشمس هى أكبر الظواهر الطبيعية فى مصر ، فقد أسندوا قيادتها الى « رع » كبير آلهة المصريين فى أيام التعبد كما أن الهيليين قد أسندوا الى « زوس » كبير آلهتهم قيادة الرعد والبرق والمطر ، لأن هذه الاشياء هى أكبر الظواهر الطبيعية فى جو أوروبا الممتلىء بالسحب والغيوم .

ولقد رأى المجوس أن النار هى وحدها الجديرة بتمثيل الكائن الأول لما فيها من نعمة الانضاج وقوة الاحراق .

وآمن غير هؤلاء بأن الممثل الأعلى هو فيل أو بقرة أو غير ذلك . فمجد كل شعب لما اعتقد أنه الممثل الأكبر لهذا الموجد العظيم .

وكما اختلفت هذه الشعوب فى تصور ممثلى المحرك الأعظم ، اختلفت أيضا فى تصور الروح والخلود والعقاب والثواب فى الحياة الاخرى .. ونشأ من هذا الاختلاف تباين عظيم فى الطقوس الدينية ، وفيما ينبغى أن يصنع بالجسم بعد الموت ، لتخلد الروح فى النعيم المقيم . ولا ريب أن هذا الاختلاف أو ذلك التناقض هو أول الحكم التى من أجلها جاءت الديانات السماوية لتقضى على هذه الفوضى وذلك الاضطراب الناشئين من تناقض تلك الشعوب فى العقائد والطقوس ، ذلك التناقض الخاضع للبيئات والاجواء والمواقع الجغرافية ، ولأهواء الزعماء الدينيين الذين نشأوا فى الشعوب القديمة فأسرو الناس بلباقتهم وبلاغتهم وأخضعوهم ببيانهم لما زعموا أنه الحق المبين ، والنهج القويم ، فرأى مبدع الكون أن يضع حدا لهذه الهمجية ، فأعلن على ألسنة أنبيائه أن الشعوب لا تملك أن تضع قوانين هذه الديانات وأنه لا يمكن أن يكون لهذه العقائد الامصدر واحد وهو السماء .

وهنا حدثت الانقلابات الهائلة التى لا يتسع المقام الآن لذكرها . ولقد بدأ مبدع الكون باليهودية ثم ثنى بالمسيحية ، ثم اختتمها بالاسلام لحكمة واضحة لا يستعصى فهمها على من درس تاريخ الديانات ، وأحاط علما بعقليات وأخلاق وطباع البيئات التى نشأت فيها هذه الديانات الثلاث ،

ودرس فى تمعن واتقان كيف تدرجت تشريعاتها ، وترقت نواميسها حسب تدرج العصور ، وترقى العقلية الانسانية .

ومهما تكن الديانات الوثنية مشحونة بالأخطاء والضلالات ، مفعمة بالأكاذيب والأباطيل ، فان النزاهة تحتم علينا أن نعلن فى صراحة أن هذه الديانات قد خففت من الجرائم ، وقللت من الشرور والآثام ،وكسرت - ولو بعض الشيء - من حدة الشهوات الانسانية . ولو لم يشأ الله لتلك الديانات الوثنية أن تأخذ مكانها تحت الشمس لكانت الجرائم والشرور أضعاف ما هى عليه ، ولقاسى الأنبياء عليهم السلام فى افهام البشر أساليب التدين والاذعان أضعاف ما قاسوا بعد أن مهدت لهم تلك الديانات سبل القيام بمهمتهم على الوجه الأكمل المراد .

هناك فضل آخر يجب أن نعترف به للديانات الوضعية ، وهو اسعاد البشر وهناؤهم بسبب ذلك الأمل الذى أرسخته فى نفوسهم - ولو عن طريق الخيال - بأنهم سيتمتعون فى عالم الخلود بنعيم لا ينتهى ولا يبيد ، فملأ هذا الامل حياة الانسانية سرورا وغبطة ، وأحال العذاب والشقاء فى نظر المعذبين والأشقياء الى سعادة نفسية لذيذة ما دام سيعقبها تنعم دائم وسرور خالد .

وبعد هذا فليس للديانات الوثنية أثر يذكر الا من الناحية التاريخية حيث تضع بين أيدينا نماذج من عقليات القدماء وصورا من تفكيراتهم وادراكاتهم ، وتبين لنا ما بين الديانات السماوية وبين هذه الديانات من فروق ودرجات .

الآن وبعد أن أبنا مقدار تأثير الديانات الوضعية على الامم القديمة ، فقد وجب علينا أن نبين أثر الديانات السماوية فى الامم التى اعتنقتها واليك هذا الاثر :

نحن نعلم جميعا أن أسس الأخلاق الدينية مرتكزة على الوحى الالهى الى الانبياء عليهم السلام ، ونعلم أن الله أوحى اليهم أنه سبحانه أصل الخيرات والمعارف ، وأنبأهم بالعنصر الذى خلقهم منه ، وبطبيعتهم التى كانوا يجهلونها ، وبمصيرهم العام ، وبواجبهم الذى لا ينبغى أن يحيدوا عنه قيد أنملة لو أنهم ساروا على النسق الذى يحبه لهم ، وأوحى اليهم كذلك أن عقل الانسان ضعيف ومحدود ، وأنه فى حاجة الى المرشد الأعلى ليهديه الى سواء السبيل ، وأن مصلحته الخاصة تقضى عليه بأن يطيع ربه مقتنعا بأنه تعالى لا يأمر الا بالخير ، ولا يحض الا على الفضيلة ، وأن هذه الحياة الدنيا ليست الا قنطرة يعبر عليها الانسان الى الحياة الخالدة ، وان حظه لا ينتهى عند هذا الاجل الدنيوى القصير ، بل سيتصل بما قدر له فى العالم الآخر الذى سيلاقى فيه جزاء عمله ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

وتمتاز الأخلاق الدينية بأنها مؤسسة على حب الله واطاعة كل أوامره،

ثم على حب المؤمنين الى حد تسويتهم بالنفس : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولا ريب انه اذا أحب الانسان خالقه وأطاع أوامره ، وأحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فقد وصل الى أرقى درجات الكمال .

هناك فضل آخر قد سكبه نور الأخلاق الدينية على بنى الانسان ، وهو انه ربط وجداناتهم وضمائرهم بالعروة الوثقى التى لا تنفصم ولا تنحل ، وهى عروة الايمان .

أما من الناحية العلمية البحتة فان الحقيقة الدينية هى وحدها الحقيقة العليا أو المطلقة ، وان ما عداها حقائق نسبية تتصل بتلك الحقيقة الابدية من قريب أو من بعيد .

وأما أولئك الذين يزعمون بأن الدين والعلم متعاديان ، فهم واهمون أو سطحيون ، لأن العقل - وهو الموئل الأعلى للعلم - لم يخرج عن كونه هبة من صاحب الدين . واذن ، فينبغى أن يمتزج الدين بكل أفكار الانسان وأعماله فى هذه الحياة ، لأن موضوع الاخلاق هو دراسة صلات بنى الانسان بعضهم ببعض . ولا يمكن أن ينظم هذه الصلات تنظيما محكما غير البارىء الأعلى فى قانونه الخالد ، وهو الدين . لأن واجب الانسان نحو أسرته ومواطنيه ونحو أفراد الانسانية جميعا ينبجس من منبع واحد ، وهو واجب الانسان نحو ربه : « من اتقى الله اتقى الناس » .

والواقع المحسوس الذى نشاهده كل آن فى الحياة العملية هو أن الانسان ضعيف عاجز أمام أهوائه وشهواته وغرائزه الحيوانية ، وأنه فى أشد الحاجة الى معونة صوت الايمان ليقوده فى هذه الظلمة المخيفة التى تحوطه من كل جانب ، وهذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، اذ منذا الذى يستطيع أن يقود الوجدان البشرى الا تلك القوة العليا التى تحيط بكل شىء ، وتستطيع كل شىء ثم أى جزاء هو أكثر هبة فى نظر الروح الخالدة من جزاء الله الأبدى الذى سيلتقى بها فى حياة طويلة لا يدرى مداها ، ولا يعرف منتهاها وأى عزاء يسلى أحزان الحياة وآلامها أعلى من التفكير فى عدالة الله تعالى التى ستوفى الصابرين أجرهم بغير حساب .

هذا كله بالنسبة الى أثر الدين على الفرد ، وأما أثره على الجماعات ، فهو لا يقل أهمية عما تقدم ، اذ منذا الذى يستطيع أن يفهمنا احترام الانظمة المقررة ومعنى الفضيلة العائلية والاذعان للسلطات الشرعية ويعودنا على الصبر واحتمال الآلام وتخفيف وقع منظر الفروق الهائلة بين شقائنا وسعادة غيرنا على نفوسنا أكثر من الدين ؟

وفى الحق أن حكومة تشعر بأن عليها واجبا تؤديه لأفراد الشعب لا تستطيع أن تؤسس تعاليمها الاخلاقية منفصلة عن الدين ، بل يجب عليها أن تشركه على الاقل فى تأسيس هذه الاخلاق ان لم تعتمد عليه

اعتمادا كليا ، وأن تفسح له مكانا عظيما فى مدارسها ومعاهدها ومنتدياتها ليستطيع أن يؤدى مهمته فى تهذيب النفوس كما ينبغى ، لاننا جميعا نعمل على صيانة القوانين الوضعية ، ونسهر على احترامها وحفظها من عبث العابثين ، بل انها تصل من نفوسنا أحيانا الى مرتبة الاجلال والتقديس ، فاذا دوت فى المكان هذه الجملة : « باسم القانون أعمل كذا » عند ذلك تخفق القلوب ، وتهلع النفوس ، وتنحنى الرؤوس ، وتسود المجلس الرهبة ويخيم عليه السكون .

ولا ريب أننا لم نخلع على القانون هذه القداسة الا لأنه يقر الأمن ، ويصون الحقوق ، وينشر السلام والاطمئنان . ولكن من يدقق النظر فى أحوال الامم وظواهرها الاجتماعية ، وخصائصها النفسية يتضح له تمام الاتضاح أن الممتنعين عن الجرائم منهم عشرة فى المائة متأثرون بالاخلاق فى ذاتها ، وعشرون يخشون القانون ، وسبعون يتجنبون الرذائل اتقاء الله وخوفا من عقابه الذى هم موقنون بأنه أشد وأقسى وأطول مدى من عقوبات القوانين الوضعية . فاذا كان الدين قد نال من النفوس البشرية هذا المنال الذى لم يفز القانون بنصفه ولا بثلثه ، فيجب علينا كوطنيين مخلصين لبلادنا ، راغبين فى صلاح أحوالها الاجتماعية أن ننمى فى نفوس الجماهير هذه العقيدة النبيلة ما دام لها على أخلاقهم هذا الأثر الجليل .

محمد غلاب

الفيوضات الربانية
فى شرح الحكم العطائية

للأستاذ السيد محمد عيد الشافعى

يصدر قريبا كتاب « الفيوضات الربانية فى شرح الحكم العطائية » بتأييد وتشجيع من مشيخة الطرق الصوفية .

كتاب يجب أن يقرأه كل صوفى .